علاقة اللَّه بالإنسان قوامها الحُب والعطاء[1]

إن اللَّه دائمًا يُعطي، ويُعطي بسخاء، ويُعطي للكل. هو يُعطي دون أن نطلب، ويُعطي فوق ما نطلب. وهو يُعطينا ما نعطيه للغير. وفي كل ذلك يُعلِّمنا العطاء. وقد بدأت علاقة اللَّه بالإنسان، بالحب والعطاء.

*كان اللَّه وحده منذ الأزل. لم يكن هناك غيره. ثم أحب أن نوجد فأوجدنا، وكانت النعمة الأولى التي أعطانا إيَّاها هي نعمة الوجود، لم يكن اللَّه محتاجًا إلى وجودنا بل نحن المحتاجون إليه، وخلقه لنا كان من فرط تواضعه، إذ لم يشأ أن يوجد وحده، بل أوجد مخلوقات أيضًا توجد معه.

*والعطية الثانية التي أعطاها اللَّه للإنسان، كانت بأن خلقه في أحسن تقويم، وميَّزه عن باقي المخلوقات الأرضية بالعقل والنطق والفهم، وأعطاه أيضًا حرية الإرادة والسلطان على حيوانات البرية وطير السماء وسمك البحر، بل جعله خليفة اللَّه في أرضه.

* وعندما خلق اللَّه الإنسان أعطاه أيضًا الصحة والقوة والجمال، كان الإنسان الأول في منتهى الجمال حينما خلقه اللَّه، وكانت النقاوة والطهارة تُضفي عليه جمالًا آخر، وكان كاملًا جسدًا ونفسًا وروحًا قبل أن تغير الخطية من صورته.

* ومنح اللَّه الإنسان الأوَّل البركة: فبارك آدم وحواء، ثم بارك نوحًا وبنيه، وبارك إبراهيم أب الآباء والأنبياء، وبارك محبيه من البشر ومن الأنبياء، وجعلهم بركة للعالم. ومنح كل أولئك كرامة ومجدًا، في الأرض وفي السماء.

* ومنح اللَّه البشرية نعمة البقاء، والاستمرارية في الوجود، وذلك عن طريق الزواج، بأن خلق الإنسان ذكرًا وأنثى، ليثمروا ويكثروا ويملأوا الأرض.

* ولمَّا مات الإنسان، أعطاه اللَّه نعمة القيامة من الأموات، فسوف يقوم البشر في اليوم الأخير ليحيوا حياة أخرى، وهكذا أعطى اللَّه للبشر نعمة الخلود، لكي يحيوا إلى الأبد في حياة أخرى لا تكون لها نهاية.

* وفي محبة اللَّه للإنسان، منحه مواهب وعطايا صالحة. تتعدَّد هذه المواهب من شخص إلى آخر. بعضها مواهب عقلية، والبعض مواهب روحية. ووصلت مواهبه لمختاريه إلى حد صُنع المعجزات. وأعطى البعض حكمة، كسليمان. وللبعض موهبة الرؤى وتفسير الأحلام كما كان لدانيال ويوسف الصديق.

* وأعطى اللَّه للإنسان موهبة الحديث معه. كما كان موسى كليم اللَّه، وإبراهيم خليلًا للَّه.

بل أعطَى البشرية كلها شرف الحديث معه في الصلاة. وأعطى البعض شرف خدمته ونشر ملكوته على الأرض كما حدث مع الأنبياء والرسل، وخدام الله في كل عصر ومكان. وألهم هؤلاء ما يقولون للناس. وأعطَى الأنبياء موهبة الوحي الإلهي.

* ولمَّا أخطأ كثير من الناس، فإنَّ الله لم يتركهم في سقطاتهم، بل أعطاهم روح التوبة والرجوع إليه، وأعطاهم أيضًا المغفرة، وكل هذا من حنان الله ورحمته.

* وأعطى الله للإنسان أن تكون له صِلة بالقوات السمائية، وذلك عن طريق عمل الملائكة من أجل البشر، فهناك ملائكة تبشّرهم، وملائكة تنذرهم، وملائكة تعينهم وتنقذهم. بل أعطاهم أيضًا أن يحيوا مع الملائكة في العالم الآخر فيما بعد.

* وأعطى الله للإنسان كل ما يحتاجه على الأرض من العناية، وكفل له حاجته من الطعام والشراب والملبس، وجعل في الأرض خيرات تكفي لكل البشر، إن حسن توزيعها.

* ومن أهم العطايا الإلهية للإنسان: الرعاية فالله لم يخلق الإنسان ويتركه وحده بل لا يزال يرعاه في كل مكان وعبر الأجيال، ويرسل له رعاة يهتمون به ويحلون مشاكله، ويمنحونه العون والمساعدة.

* ومن عطايا الله للإنسان، إرشاده له في طريق الحياة، وتعريفه بالطريق السليم الذي يسلك فيه، وهكذا منحه الوصايا الإلهية التي صارت نورًا له في الطريق. ومنحه أيضًا الضمير الذي يُميِّز بين الخير والشر، ويحث على الخير، ويحذر من الخطأ، ويقود الإنسان إلى التوبة، وإلى محبة الله وطاعته.

* وقد أعطى الله للإنسان قلبًا يشتاق إليه، وأعطاه أيضًا نعمة الإيمان به، حتى أننا نشكر الله ونقول له في صلواتنا: "أعطيتني عِلم معرفتك" فما أجمل هذه العطية أن نعرف الله وأن تكون لنا به صلة، وتستمر هذه الصِّلة من الآن وإلى الأبد.

* أعطانا الله أيضًا أن نعتمد عليه، وأن نطلبه في ضيقاتنا، فيستجيب لنا ويعيننا. وهكذا نشكره على كل إحساناته إلينا، ونشعر أننا لسنا وحدنا في هذا العالم، وإنما هناك قوة من فوق تسندنا في طريق الحياة.

* أعطانا الله أيضًا المحبة التي نحبه بها، والتي نحب بها بعضنا البعض والتي بها نعطي للغير بقدر ما نستطيع: نعطيهم حُبًا، ونعطيهم نصيحة وفكرًا، ونعطيهم من الأمور المادية التي أعطانا الله إيَّاها، وفي كل هذا لا نعتبر أنفسنا إننا نُعطي، وإنما نوصل خيرات الله للناس.

* إن داود النبي تذكَّر عطايا الله وإحساناته إليه فقال في المزمور: "باركي يا نفسي الرب وكل ما في باطني فليبارك اسمه القدوس. باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل إحساناته".

وهكذا أعطانا درسًا في أن نتذكَّر كل إحسانات اللَّه إلينا، وكل إحساناته إلى أحبائنا ومعارفنا وإلى وطننا أيضًا.

* إنَّ كل عطية صالحة تصل إلينا، لا شك أن مصدرها هو اللَّه الذي أعطاها. غير أننا كثيرًا ما ننسب ما يصل إلينا من خيرات لغير اللَّه. ننسب ذلك إلى بعض الناس، أو إلى ذكائنا الخاص، أو إلى الظروف المحيطة. وبهذا يقل شكرنا للَّه، ويقل اعترافنا بجميله، وتقل صلتنا به واعترافنا بأننا لولاه ما كُنا شيئًا على الإطلاق.

* اجلس يا أخي إلى نفسك، واطلب من ذاكرتك أن تجول في كل عمل اللَّه من أجلك منذ أن وُلِدت وإلى هذه اللحظة. وتأمَّل في كل خطوة أنجح اللَّه فيها طريقك، أو أعطاك نعمة في أعين الناس، أو أنقذك من مشكلة، أو ستر عليك ولم يشأ أن يكشفك... ثم أشكر اللَّه المُعطي. وحتى وإن كانت عطاياه قد وصلت إليك عن طريق آخرين، فاشكره أيضًا لأنه استخدم هؤلاء من أجل منفعتك.

---

1. مقال لقداسة البابا شنوده الثالث نشر في جريدة الأهرام بتاريخ 14-9-2008م